

## نزيف الرأسمال البشري في ظل الإغراءات الخارجية

### قراءة وتصور لإدارة وكبح هجرة الكفاءات

#### Bleeding human capital under external temptations Strategy and vision for managing and curbing brain drain

محمد الهادي قاسي<sup>(1)</sup> \*. إيمان حمري<sup>(2)</sup>

<sup>(1)</sup> جامعة البويرة، مخبر المتعدد التخصصات في علوم الإنسان والمجتمع، البويرة 10000،  
الجزائر، mo.kaci@univ-bouira.dz

<sup>(2)</sup> جامعة البويرة، مخبر تخطيط الموارد البشرية وتحسين الأداء، البويرة 10000، الجزائر،  
i.hamri@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2024/09/02؛ تاريخ القبول: 2024/10/26؛ تاريخ النشر: 2024/12/22

#### الملخص:

يهدف من خلال هذه الدراسة إلى الوقوف على سيرورة ومراحل تطور أزمة نزيف الكفاءات والرأسمال البشري محاولين فهم أبعادها المختلفة الخفية منها والظاهرة في ظل تنامي وتيرة الاستقطاب الممنهج من طرف بعض الدول المتقدمة التي تعلنها صراحة كحرب جديدة لاصطياد هذه الجواهر النادرة، حيث تُعد هجرة العقول البشرية من أئمن الهدايا التي تقدمها الدول المصدرة للهجرة إلى الدول المستقبلية.

ومن هذا المنطلق، جاءت هذه الدراسة كقراءة سوسيولوجية تحليلية لفهم حيثيات مسألة تدفق الهجرة والتعمق في مفاصلها ولمعرفة أهم الأسباب والدوافع، وتبسيط الضوء على أهم الاقتراحات الواجب الاستعجال وضعها للحد من هذا النزيف الذي لا يقدر بثمن كونه أحسن استثمار، والعمل على بناء تصور جاد لمعالجة هذه القضايا المستعجلة. الكلمات المفتاحية: الرأسمال البشري؛ هجرة الكفاءات؛ إدارة أزمة هجرة الأدمغة.

**Abstract :**

Through this study, we aim to examine the process and stages of development of the crisis of the drain of talent and human capital, trying to understand its various hidden and apparent dimensions in light of the growing pace of systematic polarization by some developed countries that openly declare it as a new war to hunt these rare gems, as the migration of human minds is one of the most valuable gifts offered by immigration-sending countries to receiving countries.

This study came as an analytical sociological reading to understand the merits of the issue of migration flow, to delve into its details, to know the most important causes and motives, and to shed light on the most important proposals that must be urgently put in place to reduce this priceless bleeding as it is the best investment, and to work to address this urgent problem.

**Keywords:** human capital; brain drain; managing the skilled migration crisis.

**(1) المقدمة:**

تثير مسألة الهجرة بصفة عامة وهجرة الكفاءات ونزيف الرأسمال البشري بصفة خاصة موجات غير منتهية من النقاشات في العديد من المناسبات، سواء أكان ذلك على المستوى الرسمي أو غير الرسمي، وحظي هذا الموضوع باهتمام الكثير من الباحثين بالتحليل والتعمق والبحث فيه من خلال دراسات علمية في عدة فضاءات وتخصصات متعددة. وتشكل الهجرة جوهر النقاش على المستوى السياسي والاقتصادي والقومي لعديد من الدول منها المتقدمة التي تسعى إلى بسط كل الإجراءات لجذب واستقطاب الرأسمال البشري أو ذوي الكفاءات العليا لسد احتياجاتها من اليد العاملة الماهرة، وكذلك بالنسبة للدول النامية التي تخسر سنة تلوى الأخرى طاقاتها وجواهرها النادرة وتكبدها خسائر كبيرة على المدى المتوسط والبعيد.

وهناك من يفسر أن عملية نزيف واستقطاب ذوي الكفاءات عمل مدبر ومخطط لها، خاصة عندما استوعبت الدول الغربية أن بناء وتشيد الأوطان يبدأ بالاستثمار في ثروة

العقول وفي المادة الرمادية، ومدركة في نفس الوقت أن الفقر لا ينحصر فقط في قلة الموارد المالية ولكن كذلك في قلة المعرفة، وكان حال ذلك عندما بدأت الولايات المتحدة تقوم باستنزاف كل الكفاءات العالية من كل بقاع العالم وتقدم لهم كل أنواع الإغراءات المتاحة، وعملت سرا وجهرا على ترسيخ مبدأ توريد الكفاءات وتسهيل عملية تهجيرهم من بلدانهم الأصلية والتكفل بهم وإحاطتهم بكل الظروف اللائقة ليكونوا جزءا حاسما في التنمية.

نجد أن الدول الغربية تبني سياساتها بدقة لاستقطاب أصحاب الكفاءات من الدول العربية والنامية التي تعاني من عدة أزمات، وهو حال العديد من الدول الغربية ككندا وأمريكا وفرنسا وبريطانيا، وعلى سبيل الذكر أصدر الكونجرس الأمريكي قرارا بزيادة تصريحات الحصول على الإقامة للخريجين والكفاءات العلمية للأجانب في عديد المجالات، والحال نفسه لباقية الدول الغربية التي عملت على سنين عديدة لتقديم كل التراخيص والتسهيلات، ومؤخرا فقط أصدر الاتحاد الأوروبي نظام البطاقة الزرقاء لتسهيل منح التأشيرات لأصحاب الكفاءات والمهارات المختلفة.

ومن أجل ترسيخ مبدأ الحفاظ والاستثمار في المورد البشري خاصة النادر منه والحد من نزيف الثروات البشرية التي تُعد من الطاقات الثمينة في قاموس الاقتصاد والسياسة والأمن القومي والعلمي والتنموي، ومن أجل معالجة أزمة نزوح ونزيف الأدمغة والمحافظة عليها والحد من أخطارها، أتت هذه الدراسة بهذه التساؤلات: لماذا أخفقت الدول العربية على إهدار طاقاتها واستنزاف رأسمالها البشري وتكبدها خسائر كبيرة من وراء خطط غير مدروسة بالشكل الذي يليق السياسات الرشيدة؛ وفيما تكمن الأسباب الخفية والظاهرة لتفاقم هذه الأزمة؛ وكذا وضع تصور شمولي لآليات الحفاظ ومواجهة الأخطار المحدقة جراء التغيرات العالمية؛ مع قراءة معمقة لفهم الدوافع والمسببات من أجل التدبير والتخطيط لبناء اقتراحات تضمن عودة هؤلاء لأوطانهم الأصلية والاستنفاع بمؤهلاتهم وكفاءاتهم في بناء الاقتصاد والتنمية الحقيقية للبلد.

## 2) التحليل المقارباتي لنزيف الرأسمال البشري:

قبل أن نتطرق للتحليل المقارباتي والتعمق في أهم النظريات التي تناولت موضوع نزيف الرأسمال البشري أو ما يعرف بهجرة العقول وغيرها من المسميات والمفاهيم المرتبطة بهذا المصطلح، بودنا أن نتناول على الترتيب هذه العناصر:

## 2-1) قراءة حول مفهوم نزيف الرأسمال البشري:

تُعد مشكلة نزيف الرأسمال البشري وهجرة العقول من أهم القضايا والمسائل التي تحتل أهمية بالغة في الشأن الجيو-إستراتيجي، والقومي، والاقتصادي والسياسي وعلى صعيد العديد من المستويات، وبالأخص ظاهرة عالمية، وجلبت اهتمام القادة والحكام وشغلت بال العديد من التخصصات العلمية والباحثين، حيث نجد من يعتبر هذا النزيف بالمرض العضال الذي يهك جسم البلد ويضعفه، من خلال استنزاف المورد الأثمن ألا هو العقل البشري الذي يُعتبر الثروة الأعلى من بين الموارد المتاحة للنهوض بتنمية حقيقة الأسس، تضمن التطور والاستمرار<sup>(1)</sup>.

ارتبط مفهوم نزيف الرأسمال البشري بعدة مصطلحات وغيرها من المسميات، ورغم اختلافها إلا أن دلالتها واحدة، وأول ظهور رسمي لهذا المفهوم عندما بدأت أمريكا حربها لاصطياد الكفاءات من أوروبا وبالأساس من بريطانيا، وكان ذلك إثر المقولة الشهيرة لوزير التعليم البريطاني عام 1963 عندما قال بالحرف الواحد: "أن الولايات المتحدة الأمريكية تعيش بعقول أناس آخرين" وكان ذلك تلميحا عن الفجوة المترتبة عن نزيف الكفاءات المهاجرة إلى أمريكا والتي ترتبت عنها تداعيات اقتصادية في بداية الستينيات من القرن الماضي<sup>(2)</sup>.

والموافق عليه عند فحص أدبيات مصطلح هجرة العقول باختلاف مسميتها، نجد أنها تشترك كلها في بعض المفاهيم وإلى حد بعيد نجدها تُوصف الظاهرة بشكل لائق، ولكن الملفت للانتباه أننا لم ندرك بعد بعض الإخفاقات في الفهم الصحيح لواقع الظاهرة سوسيولوجيا وقد نعتقد أن المسألة مدبرة في الغالب للاستخفاف بعقولها حتى لا نستوعب الحقيقة خاصة من مكمن استنزاف هذه الثروات البشرية والكفاءات العليا التي بمقدورها أن تساهم في بناء أوطانها، وبالتالي يُنظر للمشكلة كأنها اعتيادية.

وفي هذا القبيل تتجرب بعض المنظمات الدولية التي تحركها قوى الدول الغربية

(1) أحمد إسماعيل المعاني، "رؤى مستقبلية لمواجهة العقول العربية"، أوراق وأبحاث وتقارير مؤتمر الموارد البشرية في الوطن العربي بين التوطين والهجرة، 16-17 أكتوبر عمان، مطبعة الأمانة العامة لمجالس البحث العلمي العربي، الأردن، 2019، ص 25

(2) فتحي سرحان، نزيف الأدمغة العربية المهاجرة وإدارة استثماراتها بين الجنة المفقودة والموعودة، مكتبة الشريف ماص للنشر والتوزيع، 2011، ص 6

المستفيدة من هذه العقول المستضيفة في بلدانها بوصف ظاهرة هجرة الكفاءات مجرد تنقل الأفراد عبر حيز جغرافي وكثيراً ما يدعم ببعض التفاسير الزائفة لتغليط الرأي العام والاستخفاف بالمسألة حتى لا تثير الاهتمام لدي الدول المصدرة للكفاءات، فالي جانب حرية تنقل الأفراد تفسر هذه الظاهرة كونها من باب تبادل العقول وهو أمر طبيعي ناجم من تفاعل الحضارات وحوار الثقافات، أو هي نوع من التبادل العلمي، ولكن المسألة أعقد من ذلك بمئات المرات لأن هذا التنقل يكون في اتجاه واحد فقط، وتداعيات الهجرة أنها توسع الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة وتأثيراتها السلبية تمتد على المدى المتوسط والبعيد على الدول الفقيرة<sup>(1)</sup>. وذهب البعض بنعت هجرة العقول كونها "ظاهرة ذات ارتباط وثيق باستغلال الدول المتقدمة للبلدان النامية... واتخذ هذا الاستغلال بعد الحرب العالمية الثانية أشكالاً متعددة منها استنزاف الثروات الطبيعية للدول النامية واستغلال قواها العاملة"<sup>(2)</sup>.

قد نتفق وقد نختلف على التعريفات الخاصة بمفهوم نزيف الرأسمال البشري، وهي كلها تعبر عن الخسارة في الكفاءات البشرية التي تنتقل من العالم النامي إلى العالم الصناعي المتقدم<sup>(3)</sup>، ولكن القراءة الحقيقية لهذه الظاهرة أن هناك تضليل متعمد من طرف بعض المنابر والإعلام الغربي ولا يعبر عن المعنى الحقيقي للظاهرة، وبشكل آخر هو نهج معتمد ومتعمد لتفريغ الظاهرة من بعدها الحقيقي، الذي يفسر نوايا الدول المتقدمة التي تسعى بكل الطرق للظفر بهذه العقول، وهي تدرك أنها تفرغ وتستنزف الطاقات البشرية للدول النامية لتكرس التبعية والهيمنة والسيطرة والاستغلال، بمسميات جديدة أو بالأحرى بضخ دماء جديدة لاستغلال الآخرين بمصطلحات جديدة على غرار مصطلح عولمة العقول والموارد البشرية بذريعة التبادل الدولي للمهارات.

## 2-2) الاتجاهات المقاربتية لظاهرة نزيف العقول:

عند الوقوف لدراسة ظاهرة الكفاءات، فكل العناصر المتوفرة تُردد علينا نفس

(1) علي صالح جوهر، حسام إبراهيم، هجرة العقول بين الاستنزاف والكسب، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، المنصورة، 2018، ص 13

(2) نادية خضير كناوي، "هجرة الكفاءات العلمية وانعكاساتها على التنمية الاقتصادية في الوطن العربي"، مجلة المثنى للعلوم الإدارية والاقتصادية، المجلد2، العدد3، العراق، 2012، ص 11

(3) فتحي سرحان، مرجع سابق، ص 4

الأسطوانة وكأن مسألة نزيف العقول نتيجة حتمية وقضية محسومة لاعتبارات محددة سلفاً، والمتمثلة في مجموعة من التعقيدات ذات صلة بالحالة الاقتصادية والاجتماعية والتنمية والسياسية والثقافية والعلمية وغيرها من الأوضاع التي تعيشها الدول الفقيرة والنامية المصدرة للكفاءات، مع العلم أن هذا الموضوع له صدى في عدة تخصصات علمية، وقد يشكل أرضية خصبة للدراسة من رجال الاقتصاد أو زاوية أهل السياسة أو من طرف علماء الاجتماع، لكن المسألة برمتها لم تحظى بالاهتمام الكافي من رواد النظريات، وعلى ذكر النظريات سنلقي الضوء على أهم المقاربات التي تناولت هذا الموضوع بالتفصيل:

## 2-2-1) المقاربة الفردية:

تنظر هذه المدرسة إلى موضوع هجرة العقول من منظور فردي، بمعنى أن منطلق فكرة الهجرة عبارة عن مشروع يراود صاحبها لتحقيق الذات سواء من جانب الحياة المهنية والعلمية والإبداعية خاصة من ذوي الشهادات والكفاءات العليا، والتي في اعتقاد صاحبها أن مجموعة الظروف المحاطة للبيئة التي يعيشها غير سليمة لتحقيق ذلك، وكذلك نتيجة الإحباط النفسي من تدني فرص وأمال النجاح في موطن الأصل. والنقد الذي طال هذه النظرية والتي تشكك في أسبابها، حيث ألمحت بعض الدراسات من طرف المنظمات الدولية أن في بعض الحالات بلد الأصل يوفر رواتب مغرية بالمقارنة ببلد المهجر، والقراءة الأخرى هي أنها تشكك في ضعف الانتماء لأوطانهم<sup>(1)</sup>، وقد نعتقد أن هذه القراءة بقدر ما هي خطيرة وغير منصفة إلا أنها تعتمد هذا الوصف لإرساء القطيعة الدائمة بين المهاجر عن بلده الأصل أو كأن يُنظر لصاحبها كخائن لوطنه وتزرع الشكوك في ذهنه ووجدانه.

## 2-2-2) المقاربة الاقتصادية:

تؤكد النظرية الاقتصادية على دور الرأس مال البشري وأن نهضة الأمم تبدأ بنهضة العقول ونهضة العقول تبدأ بالنهوض بمستويات التعليم، وعلى حد قول الزعيم الراحل لدولة سنغافورة "لي كوان يو" عندما وجه له الشكر على النهضة الاقتصادية السريعة التي عرفتها دولة سنغافورة، فرد عليهم قائلاً: "الشكر يعود للمعلمين والأساتذة الذين تمكنوا في ظرف وجيز من خلق ثروة بشرية متمكنة وماهرة ومبدعة، أما أنا فقممت فقط برفع

(1) زهرة مرسل، هجرة الكفاءات وإشكالية التنمية في المغرب العربي- دراسة حالة الجزائر ما بين 2000-2014،

رسالة ماجستير، جامعة مولاي طاهر سعيدة، الجزائر 2014-2015، ص 17

أجورهم....". وهذا الكلام له عدة دلالات فمنها من تؤكد إسهام هذه الثروة في بناء أوطانها والارتقاء به إلى مصف الدول المتقدمة، والدلالة الثانية أنها تمكنت من إهدار ونزيف هذه العقول وتمكنها في الإدماج الاجتماعي والاقتصادي والتنموي نظرا للظروف المتاحة بعد هذه النهضة الفكرية والمعرفية. وقد نفهم أيضا فبدل ضياع هذه المكاسب الثمينة، حيث تشير الأدبيات أن هجرة المهارات من بلدانها الأصيلة إلى البلدان المستقبلية تمثل خسارة بالغة لأوطانها... وهذا ما يمكن أن نعتبره الأثر المباشر الذي تحدث عنه بعض الاقتصاديين<sup>(1)</sup>، وهذا ما استطاعت سنغافورة من تجنبه، والدلالة الأخرى تكمن في القراءة السياسية الثاقبة للقادة وأهل السياسة والتدبير ليس في بناء الأوطان وإنما المحافظة على الثروات البشرية وتمكينها من بناء أوطانهم، ومن منا لا يستطيع أن ينكر كل من النهضة التي قامت في سنغافورة و بدرجة ربما أكثر وأكبر ما قامت به دولة ماليزيا بفضل ما قام به " محمد مها تير " خلال فترات حكمه المتعاقبة.

وما لفت انتباهي منذ أن انشغلت بهذا الموضوع، هي تلك الدراسة التي قام بها « كمال كبرة " بعنوان " الاقتصاد السياسي لهجرة العقول " وأن خلاصة هذه الدراسة تتلاقى وتؤكد فرضية الإغراءات والاستقطاب الممنهج المعتمد من طرف الدول الغربية المتقدمة لاستنزاف المهارات البشرية من دول الجنوب هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن هناك مكيدة مدبرة لتكريس التبعية. فهو يلاحظ أن التمييز المتمثل في هجرة العقول لا يمكنه ادعاء حياد ويصف أيضا على أن هذه الهجرة تدفق عكسي من شأنه تكريس اعتماد الدول الأقل نموا على الخارج في مجال التكنولوجيات وينعت بصريح العبارة على أن هذه هجرة هو النقل العكسي للتكنولوجيا<sup>(2)</sup>، وهذا بكل تأكيد يوضح مدى ما يترتب من ضياع وهدر في القدرات الماهرة على الابتكار وعلى توسيع نطاق المعرفة والتكنولوجية، والمساهمة في مسارات تنمية البلد جراء الخسارة في الرأسمال البشري المتميز.

### 3) قراءة في تداعيات نزيف الرأسمال البشري:

الأجدر بنا سواء على المستوى الرسمي أو غير الرسمي، أو في سياق الأبحاث العلمية

(1) أميرة محمد عمارة، "هجرة العقول وأثرها في النمو الاقتصادي في مصر"، مجلة بحوث اقتصادية، العددان 23-

24، صيف- خريف 2013، ص 11

(2) نفس المرجع السابق، ص 12

المرتبطة بهذا الموضوع، أو من قبل كل شخص غيور على بلده على شكل فردي أو جماعي الوقوف عند هذه المشكلة التي تعد من أخطر المشاكل على التنمية بكل أبعادها المختلفة. وهي ظاهرة ولا بد من أن تستمر في ظل الأوضاع الحالية ما لم نتحرك ونجمع سويا جهودنا في قراءة جل التداعيات التي قد تنجم من فقدان هذه الطاقات البشرية، والعكوف لمدة حتى ولو تطول لنبني تصورا ورؤى نابغة من إرادة حقيقية ضمن تصور الاستراتيجيات المستقبلية للبلد والتي تجعل في حساباتها أن النهضة الحقيقية تُبنى ضمن سياق الاستثمار والحفاظ على الرأسمال البشري، حيث كل الأدبيات تشير بوضوح أن الأوطان تبني برجالها.

وفي هذا السياق نتكلم عن أهم تداعيات خسارة الرأسمال البشري، وما لا يدعوا للشك أن بعض الدول النامية والعربية هي بلدان كلها كانت بشكل أو بآخر دولا محتلة، وهذا يعني أنها بحاجة ماسة إلى النهوض بالتنمية في الصحة والتعليم والري والزراعة والهندسة والتكنولوجية وغيرها من المجالات. وبالإضافة إلى التوسع في تعداد السكان، وكذا إلى بعض تجليات التحولات العالمية الطارئة، فيُعد الانشغال بمشكلة ضياع الكفاءات تنصدر الأولويات، التي يجب التصدي لها بكل حسم، حتى لا تزداد الهوة بين الدول الفقيرة والدول المتقدمة، وبقدر ما نحتاج إلى تنمية وبقدر ما نحتاج أكثر من أي وقت مضى لكفاءات ومهارات ولرأسمال بشري يسهم في هذه التنمية.

ومن بين التداعيات الأخرى، هو تكريس التبعية على أصعدة عدة، فإلى جانب التبعية الاقتصادية وتوابعها خاصة الاعتماد على الخبرات الأجنبية أو مكاتب الدراسات والاستشارات بتكلفة مرتفعة، نجد أيضا التبعية الفكرية والاجتماعية والعلمية... الخ، فهذه الوضعية بكل بساطة هي خسارة مزدوجة. وتكمن هذه الخسارة المزدوجة في الأموال الطائلة التي وظفتها الدولة في التعليم والتكوين والتدريب لهذه الكفاءات، وعوض أن تساهم في بناء أوطانها فنجدها تساهم لصالح البلدان المتقدمة المستقبلية التي لم تنفق عليهم ولا دينار.

وما يلفت الانتباه وبالتالي الاستعجال في كبح ظاهرة الهجرة عامة وهجرة العقول بصفة خاصة هو استفحال ثقافة الهجرة<sup>(1)</sup> في بعض المناطق والجهات المترامية لبلداننا العربية خاصة في المغرب العربي اتجاه الدول الفرنكوفونية وبالأخص فرنسا وهذا نظرا

(1) باقر سلمان النجار، حلم الهجرة للثروة (الهجرة والعمالة المهاجرة في الخليج العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001، ص41

لكون فرنسا الدولة المحتلة لشمال إفريقيا، وكذلك كندا وأمريكا وغيرها من الدول الغربية، ومؤخرا نحو بعض بلدان الخليج العربي نظرا لندرة لليد العاملة الماهرة وارتفاع الأجور. وبالعودة إلى ثقافة الهجرة، حيث تشير بعض المعطيات أن بعض المناطق على غرار منطقة جرجيس، حيث تشير الباحثة "أسماء الإحيول" قائلة: فالهجرة في "جرجيس" مترسخة في الموروث الشعبي للسكان بل تجدها في أغاني الأعراس وفي أمثالهم الشعبية وفي شعرهم التراثي، وتضيف الباحثة أن بين سنتي 2009 و2014 بلغ عدد المهاجرين من جرجيس حوالي 2869 مهاجرا من أصل 6818<sup>(1)</sup>، وبالطبيعة الحال قد نجد من بين هذه البيانات ذوي الشهادات العليا، وهذه الثقافة منتشرة أيضا في المناطق الوسطى للجزائر خاصة المجاورة للعاصمة.

في نفس السياق، نود أن نشير إلى نقطة في غاية الأهمية، والمتمثلة في الآثار المباشرة والجانبية من تداعيات نزيف العقول وذوي الشهادات العليا من أستاذة وباحثين وما يتمخض عنه من أثار سلبية في تطوير منظومة التعليم العالي والبحث العلمي، حيث تشير بعض الأرقام أن الدول العربية تقدم للغرب هدية تقدر ب 7% من الأدمغة المهاجرة إليها<sup>(2)</sup>. ضيف إلى ذلك ما ينجر من ضعف الإنتاج العلمي والبحثي في البلدان المصدرة للكفاءات، حيث تؤكد الإحصائيات على حالة تدني إنتاجية المعرفة والعلوم مقارنة بالدول الغربية، وتشير بعض بيانات منظمة اليونسكو لعام 2015، على أن نصيب الدول العربية مجتمعة هو 2.4% من حجم المنشورات في العالم. وبلغة أخرى تمثل هذه الإحصائية ما يقارب 82 بحثا لكل مليون نسمة أي أقل من نصف المتوسط العالمي الذي بلغ 176 بحثا لكل مليون نسمة، وبالمثل هناك إحصائية أخرى تثير الحيرة، حيث يشير نفس التقرير، أنه يوجد معدل 417 باحث لكل مليون نسمة، في حين أن الاتحاد الأوروبي يضم 12 ضعفا عن عدد الباحثين العرب مجتمعين<sup>(3)</sup>.

(1) المعهد الوطني للإحصاء لتونس، نقلا عن: أسماء الإحيول، هجرة تطوير الذات - بين الرغبة في التحرر والتشبث في الجذور، تجارب الهجرة ومسارات شخصية للكفاءات التونسية، إشراف: جمعية تونس الفتاة، مؤسسة كونراد أديناور، دون دار نشر، 2019، ص ص 24-25

(2) نادية خضير كناوي، المرجع السابق، ص 12

(3) هادية العود الهلول، "واقع البحث العلمي في البلدان العربية: المعوقات ومقترحات للتطوير (حالة تونس)" مجلة مستقبل العلوم الاجتماعية، العدد الخامس، ابريل 2021، ص ص 69-70

قد تبدو هذه الإحصائيات للقارئ العادي مجرد أرقاماً ولكن ما يترتب عنها من خسارة قد يكون بملايين الدولارات أو ربما بأضعاف، ومن منا لا يعرف العالم الجزائري " بلقاسم حبة" الذي تتجاوز إنجازاته العلمية أكثر من 1700 براءة اختراع وهي كلها في مجال علمي دقيق وأرباحه طائلة، والذي كُرم من طرف هيئات عالمية مرموقة ضمن 100 عالم الأكثر إنتاجية في العالم لأكثر من مرة. وقد نفهم من هذا أن هذه الإنجازات تصيب في شرايين اقتصاديات الدول المتقدمة، وبالطبع بأثر عكسي على بلد الجزائر. وتعد هذه الخسارة عبئاً ثقيلاً على الدول العربية والتي تجعلها تترجع إلى الوراء بدل التقدم إلى الأمام. وعن الشقيقة تونس، نود أن نشير عن الحادثة التي سالت كثيراً من الحبر، حيث عرجت كل وسائل الإعلام التي تطرقت إلى الموضوع حينها، وعن العمادة الوطنية للأطباء بتونس أن ما يوازي 900 طبيب هاجروا للعمل واستقروا في الخارج. وفي تنضج مسألة نزيف الأدمغة وفهم بعض المسببات وبالتالي حتى لا نقع في نفس المشكلة، يجب إعادة النظر في بعض جوانب هذه المسألة ولا يجب الإنكار أن تزايد القيود المفروضة على حرية ممارسة البحث العلمي والفكري الحر في أغلب الدول العربية، وما يترتب عليه من شعور متزايد بالاعترا ب للكفاءات العلمية والفكرية العربية داخل أوطنها وترقيها فرص الهجرة إلى الخارج<sup>(1)</sup>، وهي مناسبة موالية للدول المتقدمة من خلال هذه الفرص بطرق إغرائية للظفر بها.

وفي شأن آخر ، يجب أن نتطرق إلى ما ينجر عن نزيف العقول خاصة من زاوية النقل العكسي للعلوم والتكنولوجيا سيما عندما نربطها بالمغريات وأثر العولمة وتابعاتها، حيث يشير تقرير الأمانة العامة لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية أن هذا النقل العكسي للتكنولوجيا يشكل نقلاً من جانب واحد للموارد الإنتاجية<sup>(2)</sup>، وتبدو المسألة اعقد من ذلك ويمكن أن نقرأ أن هذا النقل العكسي يترتب عنه أثار اقتصادية وسياسية واجتماعية خطيرة على الدول المصدرة، ويمكن اعتباره سياسة واضحة لاستمرار المعادلة الاستعمارية القديمة في شكل جديد عبر تلاقي حاجات الاقتصاديات الرأسمالية الناضجة وحاجات الدول النامية التي تعتمد على الخارج، ومسارات التنمية التي ينتهجها الاستعمار الجديد إزاء الدول النامية التي تقوم فيها الشركات متعددة الجنسية بدور أساسي باعتبارها الأداة

(1) مقال بعنوان: " ما السبيل من الحد من ظاهرة هجرة العقول والأدمغة من العالم العربي"، منشور على موقع

الجزيرة نت، على الرابط: <https://www.aljazeera.net/2008/09/>

(2) Mathew, " Reserve transfer of Technology: A perspective", pp 10-11

الكبرى للاستعمار الجديد<sup>(1)</sup>. وإنه من الواجب إعادة النظر في مسألة نزيف الأدمغة بكثير من التأنى حتى تلتقي الأطروحات الخاصة بالحلول بمضامين المسببات ونستفيد من هفوات الماضي ونستعين قدراتنا والتمعن في المستقبل.

#### 4) سياسة الإغراءات وعوامل الجذب لاستقطاب العقول:

إن هذه السياسة لم تكون وليدة اليوم، بل جذورها يمتد إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، عندما بدأ السباق المحموم بين الدول الغربية، وأساسها أيضا استنزاف الدول النامية والمستعمرة ليس فقط من ثرواتها الباطنية وإنما من ثرواتها البشرية، وفي اعتقادنا أن هذه السياسة لم تأتي من العدم أو أنها مجرد صدفة، وإلى ما تؤول إليه أوضاع هذه الدول النامية والعربية التي تفتقر إلى بعض المقومات التي تجعلها تحافظ على عقولها وكفاءاتها العليا، وحتى نتأكد ونفهم هذا التخطيط المدبر حول مسألة استنزاف العقول يكفي أن ننظر إلى مجموعة الأزمات المفتعلة في مناطقنا العربية دون سواها، وهو بكل تأكيد نمط من استعمار جديد بثوب جديد.

ووسط هذا التكالب الحاد للظفر بخدمات الكفاءات الماهرة، شرعت الدول الغربية إطلاق مسميات جديدة كالعولمة وحوار الثقافات وتنقل الأفراد وتفاعل الحضارات، والرجل الكوني- العالمي- خاصة مع تنامي تكنولوجيات الاتصالات الحديثة. ويجب الإشارة أن كل هذه المصطلحات المناسبتية تُطلق لتمرير مخططات وتحقيق أهداف المجتمعات الغربية وحال هذا المثال ينطبق على تهجير العقول ودعنا نقول سرقتها، وهذا المصطلح- الرجل العالمي- يعود إلى العهد القديم وبالضبط للفيلسوف اليوناني "دوجين" حين قال: لست إغريقيا، فأنا مواطن عالمي" والذي كان يعبر عن شعوره بالانتماء للإنسانية بمعزل عن التعصب والانغلاق والتعالي العرقي والثقافي، لكن أصبح يُستعمل هذا الشعار لتضليل بعض الحقائق، واستعماله بين الحين والآخر – طبعا بازدواجية المعايير- لأنه في الوقت الذي تحارب فيه الدول المتقدمة كل أشكال الهجرة، وفي الوقت نفسه تُسهل الإجراءات لتيسير تهجير ذوي الكفاءات العليا.

قد نتماشى في الاعتقاد جزئيا بأن الهجرة قراري شخصي، لأن في كل الحالات هناك

(1) نفس المرجع السابق، ص ص 10-11

عوامل مباشرة أو غير مباشرة هي من تحفز صاحبها على اتخاذ قرار الهجرة، ولفهم تداعيات نزيف العقول وجب دراستها في سياق كلي وليس على أساس سياق فردي، حيث يعتبر عالم الاجتماع والأنثروبولوجية الفرنسي "مارسل موس" الهجرة في ظاهرها سلوك فردي إلا أن في جوهرها ظاهرة اجتماعية مركبة<sup>(1)</sup>. كما يجب عدم الانسياق وراء بعض النظريات التي تفيد أصحابها وتضر الآخرين وكنظرية الاقتصاد السياسي التي تركز مبدأ التبعية وكأن مستقبل الشعوب النامية والعربية مصير محتوم وبالتالي قبله دون نقاش أو التفكير في تغييره والبحث عن البديل حرام، والتي تشير أن جوهر هجرة العقول يتمثل في الارتباط العضوي لبلدان العالم بمركز النظام العالمي في دول الغرب المصنعة<sup>(2)</sup>، وبالطبع لا نتماشى في الاعتقاد ولا نرضخ إلى هذه الادعاءات، لأن هناك العديد من تجارب الدول النامية على غرار بعض الدول الآسيوية ودول جنوب أمريكا، وخير مثال على ذلك البرازيل التي حققت أشواطاً متقدمة من النهضة الاقتصادية ومناحي الحياة أخرى.

وعلى ذكر البرازيل، وهنا يجب التمعن في هذه التجربة الرائعة، حيث تُعد البرازيل تاسع اقتصاد عالمي بعدما كانت تعاني من أزمة اقتصادية حادة، وتشير بعض المعطيات أنه في عام 1993 كانت البرازيل تعاني من التضخم السنوي ما يوازي 2477%<sup>(3)</sup> وفي ظرف وجيز وذلك بسياسة ثاقبة، أي بعد مرور ما يقارب عشرين أصبح معدل النمو يقدر بـ 7.5% في سنة 2010<sup>(4)</sup>. والنتيجة التي يمكن استنباطها من هذه التجربة المثيرة أنه كلما كانت هناك مبادرة وإستراتيجية سياسية حقيقية وشاملة لأي بلد، بإمكان هذا الأخير أن يحقق مسيرة ناجحة لكبح العديد من الأزمات. ومن خلال هذه التجربة الخاصة بالبرازيل التي يمكن الارتكاز عليها والاستفادة منها، ووفق تقرير اليونسكو فنجد البرازيل من الوضعية السابقة المتردية وبفضل رؤيتها المستقبلية الجادة وتماشيا مع معادلة حدة التنافس على المهارات من طرف الدول

(1) Marcel Mauss, Essai sur le don : Forme et raisons de l'échange dans les sociétés archaïques, in sociologie et anthropologie, Paris, PUF, 1968, p 143

(2) سيسي أهندو، عبد الحكيم عبد الله، " هجرة الأدمغة الإفريقية على البلدان الإفريقية"، مجلة الإسلام والمجتمع المعاصر، العدد 14(1)، ماليزيا، جانفي 2017، ص 34

(3) Economie du Brésil sur site : [https://fr.wikipedia.org/wiki/%C3%89conomie\\_du\\_Br%C3%A9sil](https://fr.wikipedia.org/wiki/%C3%89conomie_du_Br%C3%A9sil)

(4) Solenn De Royer( Holland : "Doublé les échanges avec le Brésil ) "in le Figaro, le vendredi 13 décembre 2013, p7

المتقدمة، فتعد البرازيل والصين من ضمن البلدان التي أظهرت سياسة اهتمام متجددة بتشجيع الحراك وتنقل المهارات وأطلقت "برنامج علوم بلا حدود" الخاصة ببعض التخصصات العلمية للعمل مع الباحثين المحليين في مشروعات مشتركة<sup>(1)</sup>.

وعن بعض الدراسات التي اعتمد عليها تقرير منظمة اليونسكو، الذي يقر بصريح العبارة أن الدول المتقدمة تعمل بكل الطرق لاصطياد المواهب لتُثَقِّي من رصيد الموارد البشرية الماهرة لديها، وأن هناك بلدان تقوم بالفعل بصياغة سياسات أوسع من أجل اجتذاب واستبقاء المهاجرين من ذوي المهارات العالية والطالب الدوليين، بهدف خلق بيئة ابتكارية أو الحفاظ عليها<sup>(2)</sup>، وعلى إثر هذه السياسات فنجد أن الدول المتقدمة تستغل تكنولوجيات الاتصال والمعلومات الجديدة لإيجاد بديل أو نمط آخر من الاستفادة من ذوي الكفاءات والأدمغة، وهو أسلوب لجأت إليه الدول الغربية دون تهجيرهم من بلدانهم الأصلية، وهو يكرس استغلال الرأسمال البشري العربي أو للدول النامية من خلال إشراكهم عبر تقنيات العمل عن بعد، وذلك في إطار العمل الجماعي لفرق بحث والاستفادة من خبراتهم سواء كان ذلك بشكل دائم أو مؤقت<sup>(3)</sup>، وهناك من يشير إلى ما يسمى "هجرة الكفاءات المختارة".

##### 5- إدارة أزمة نزيف العقول من خلال مقترح شمولي:

ليس من باب المبالغة إن قلنا أنه رغم بعض الظروف التي مرت بها الدول النامية والعربية عقب تحررها من الاحتلال الغربي، وأخص بالذكر مناطق شمال أفريقيا، وبكل تواضع نقول أننا فعلاً تمكنا في خلق ثروة بشرية متمكنة ومتحكمة وماهرة وتألفت حيثما ارتحلنا - اخص بالذكر الكفاءات المهاجرة - ، وبالطبع لا يسعنا المقام لإعطاء الأمثلة على ذلك، ولكن المشكلة أننا لم نستطيع رغماً مرور أكثر من نصف قرن من الحفاظ على هذا

(1) تقرير منظمة اليونسكو، 2015، ص73

(2) تقرير جامعة كورنيل وآخرون-2014- نقلا عن تقرير منظمة اليونسكو 2015.

(3) سمير التنير، الفقر والفساد في العالم العربي، دار الساق، بيروت، 2011، ص126

\*«les cerveaux vont là où les cerveaux sont, les cerveaux vont là où l'argent est, les cerveaux vont là où l'humanité et la justice prévalent, les cerveaux vont là où la reconnaissance et la saine compétition sont assurées»

الرأسمال الذي لا يقدر بثمن. وبقصد أو بغير قصد، سارعت الدول الأوروبية والغربية المحتلة لبناء تصور حتى لا تعاني الدول المحتلة من نقص الإطارات لتعويض رحيل اليد العاملة الأجنبية المغادرة، وكان ذلك وفق إجماع دولي عام 1960 حول مسألة هجرة النخب من الجنوب إلى الشمال والتي تم تحليلها كاستثمار في المستقبل<sup>(1)</sup>.

ولكي نبني تصورا فعالا يحد من هجرة العقول، يجب الوقوف والتمعن كثيرا في خلاصة الدراسة التي توصل إليها العالم الصيني "كاو- Kao" عام 1971 والذي شرح وفصل المسألة بكل وضوح، حيث قال بالحرف الواحد: "العقول تذهب حيث يوجد العقل، العقول تذهب حيث يوجد المال، العقول تذهب حيث تسود الإنسانية والعدالة، العقول تذهب حيث يتم ضمان الاعتراف والمنافسة السليمة"<sup>(2)</sup>.

وتماشيا مع هذه الخلاصة التي توصل إليها هذا العالم الصيني، وكذلك العمل على الاستفادة من بعض التجارب العالمية التي سرعان ما أحرزت نتائج، على غرار بعض الدول الآسيوية الحديثة النشأة والتي تتشابه أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع بلداننا. وفي خضم روح هذه المشكلة المركبة والمتعددة الأبعاد، نتصور أن جميع الحلول تبدأ بتوجه سياسي صرف وحقيقي، ثم تليها تصور نسقي لهذه المسألة. وبعبارة أخرى أننا لا نستطيع لا الحد من نزيف العقول ولا من استرجاعها إذا كانت المبادرات كلها على حدة، وبإل يجب وضع تصور شامل يضع في الحسبان وتزامن كل أصناف الحلول لكل سبب من أسباب الهجرة دفعة واحدة.

وقد نعتقد أن الإرادة السياسية هي مفتاح هذه المشكلة من خلال إستراتيجية وطنية تلي الغرض بكل صدق ودون أي عطب، وتفكيك الأفكار الهدامة ووضع محلها الأفكار البناءة، وزرع ثقافة التفوق في الوسط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وغيرها من المجالات، حيث يحظى صاحب الكفاءة بالمكانة التي تليق به، وهذا ليس بالتكريم وبعض الشعارات، وإنما تُجسد في الواقع الميدان. ومن باب الأولويات أيضا، يجب بناء تصور جديد في منظومة التعليم العالي والبحث ورصد الإمكانيات المادية والمالية تلي غرض

(1) Anne Marie Gaillard et Jacques Gaillard, « Fuite des cerveaux, circulation des compétences et développement en Afrique : un défi global », Research Gate, janvier 2005, p38

(2) Ibid, p51

البحث الحقيقي وتلبي شغف واهتمام صاحب العقول، كما يجب إعادة النظر في مسألة الأجور بحيث لا نضع الذي لا يعمل والذي يعمل على نفس الكفة.

وتماشيا مع ما تم ذكره، ولتبيان النوايا الحسنة فمن الأجدر إنشاء مكتب وزاري خاص بالهجرة مكلف بالتواصل مع الكفاءات العليا المتواجدة في الخارج، وأن يكون الهدف من الخطة العمل على استرجاعهم إلى البلد، والعمل على إضفاء الشفافية والقضاء على كل أشكال التهميش والمحسوبية والبيروقراطية، وتوازيا مع ذلك يجب تنشيط عجلة التنمية على مستويات مختلفة لتشمل اقتراحات وأفكار ومشاريع واهتمامات الكفاءات الموجودة في الداخل والخارج مع إضفاء كل التسهيلات وإعطاء كل الامتيازات لأصحاب المشاريع المهمة. بالإضافة إلى التفتح مع الجيران سواء على المستوى المغربي أو العربي أو الإقليمي لبلورة تصور جماعي يهدف إلى المصلحة والمنفعة المشتركة، من حيث الأفكار، بناء مشاريع تعاونية، اتفاقيات علمية وتنموية.

#### 6- الخاتمة:

بالرغم من وجود ظاهرة نزيف الأدمغة والعقول على مر الأزمنة، وبالطبع هي وليدة مجموعة ظروف قد نعتبرها طبيعية في بعض الحالات، ولكنها في حالات أخرى قد تكون نتيجة عوامل أخرى منبعها ما تنتهجه الدول المتقدمة خلال عقود طويلة للاستنزاف والاستنزاق بالعقول الثمينة، وما يجب الانتباه إليه أن هناك مجموعة من التحولات العالمية المتسارعة وذلك باستغلال بعض الظروف التي تمر بها الدول النامية من أزمات الحالة كالتّي تعيشها بعض الدول العربية على غرار العشرية السوداء للجزائر وحالة الربيع العربي وضيق الحال الاجتماعي والاقتصادي والأمني والسياسي لبعض الدول.

وزيادة على ذلك مثلما قولنا على أن هذه الدول الغربية تعمل بمخططات بعضها علني والآخر باطني للظفر بالكفاءات العربية والإفريقية والتي تعتبر بالنسبة لها خزان للعقول دون أن تصرف من ميزانيتها على تكوينهم وتدريبهم وتأهيلهم. وقد تصعب مسألة الحد من نزيف الرأسمالي البشري الثمين ما لم يكون هناك تصور لإدارة وفهم الأزمة ومنها الشروع في وضع الآليات التي تعالج الأسباب والمسببات من خلال منظور شمولي يراعي شق الاستثمار في خزان الموارد البشرية المتكونة داخل البلد بالإضافة إلى وضع مقترح عملي لاسترجاع الكفاءات الموجودة في الخارج من خلال تطهير الرؤية السياسية والإدارية والإجرائية لبناء

تصور تنموي تطويري يراعي كل جوانب التنمية الشاملة كي تصبح كل الظروف مواتية لتقوي حظوظ عودة العقول إلى بلدانها الأصلية، باعتبار أنه كلما تسارعت وتيرة الإصلاحات الحقيقية تزداد فرص الجميع في المساهمة في البناء والتنمية، وتزداد الثقة لدى العام والخاص وبالتالي تسهم في زرع حب الانتماء إلى الوطن، وتبعث بروح الأمل وتزرع ثقافة الإلتقان والاحترام والمنافسة وتعطي لكل ذي حق حقه مع مبدأ المساواة في الفرص والمنافسة الشريفة وتعزيز مكانة العلم والمعرفة والارتقاء بمدارسنا وجامعاتنا لأنها بكل ببساطة هي المصنع الوحيد الذي تربي وتنشأ فيها الكفاءات. ولكبح ظاهرة هجرة العقول يجب كبح كل أشكال المسببات ووضع محلها بدائل موضوعية وصارمة وفعالية، والتي من خلالها يشعر كل أبناء الوطن وخاصة الكفاءات العليا أن بلده هو مستقبله والمستقبل هو بناء الوطن من خلال الفرص الحقيقية المواتية والتي تجعل من كل فرد يساهم من مكانه ومقامه ودرجته العلمية، حيث يشعر بالراحة والأمان والعيش الكريم، والمنافسة الشريفة، والمساواة، وتفجير طاقاته دون قيود أو شروط، وضمان مستقبله ومستقبل الأجيال القديمة. ونعتقد أنه تصور شمولي لكبح ظاهرة نزيف الأدمغة وحمايتها من كل الإغراءات والمغريات المادية والمعنوية التي تقدمها الدول المتقدمة.

### قائمة المراجع

#### المراجع باللغة العربية:

- 1- أحمد إسماعيل المعاني، "رؤى مستقبلية لمواجهة العقول العربية"، أوراق وأبحاث وتقارير مؤتمر الموارد البشرية في الوطن العربي بين التوطن والهجرة، 16-17 أكتوبر عمان، مطبعة الأمانة العامة لمجالس البحث العلمي العربي، الأردن، 2019
- 2- المعهد الوطني للإحصاء لتونس، نقلا عن: أسماء الإحيول، هجرة تطوير الذات – بين الرغبة في التحرر والتشبث في الجذور، تجارب الهجرة ومسارات شخصية للكفاءات التونسية، إشراف: جمعية تونس الفتاة، مؤسسة كونراد أديناور، دون دار نشر، 2019
- 3- أميرة محمد عمارة، "هجرة العقول وأثرها في النمو الاقتصادي في مصر"، مجلة بحوث اقتصادية، العددان 23-24، صيف-خريف 2013
- 4- باقر سلمان النجار، حلم الهجرة للثروة (الهجرة والعمالة المهاجرة في الخليج العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001
- 5- زهرة مرسل، هجرة الكفاءات وإشكالية التنمية في المغرب العربي- دراسة حالة الجزائر ما بين 2000-2014، رسالة ماجستير، جامعة مولاي طاهر سعيدة، الجزائر

2015- 2014

- 6-سيسي أهندو، عبد الحكيم عبد الله، "هجرة الأدمغة الإفريقية على البلدان الإفريقية"، مجلة الإسلام والمجتمع المعاصر، العدد 14(1)، ماليزيا، جانفي 2017
- 7- سمير التنير، الفقر والفساد في العالم العربي، دار الساق، بيروت، 2011
- 8- علي صالح جوهر، حسام إبراهيم، هجرة العقول بين الاستنزاف والكسب، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، المنصورة، 2018
- 9- فتحي سرحان، نزيف الأدمغة العربية المهاجرة وإدارة استثماراتها بين الجنة المفقودة والموعودة، مكتبة الشريف ماص للنشر والتوزيع، 2011
- 10- مقال بعنوان: "ما السبيل من الحد من ظاهرة هجرة العقول والأدمغة من العالم العربي"، منشور على موقع الجزيرة نت، على الرابط:  
<https://www.aljazeera.net/2008/09/>
- 11-نادية خضير كناوي، "هجرة الكفاءات العلمية وانعكاساتها على التنمية الاقتصادية في الوطن العربي"، مجلة المثنى للعلوم الإدارية والاقتصادية، المجلد2، العدد3، العراق، 2012
- 12-- هادية العود البهلول، "واقع البحث العلمي في البلدان العربية: المعوقات ومقترحات للتطوير (حالة تونس)" مجلة مستقبل العلوم الاجتماعية، العدد الخامس، أبريل 2021
- 13- تقرير منظمة اليونسكو، 2015
- المراجع باللغة الأجنبية:
- 14-Anne Marie Gaillard et Jacques Gaillard, « **Fuite des cerveaux, circulation des compétences et développement en Afrique : un défi global** », ResearchGate, janvier 2005
- 15-Economie du Brésil sur site :  
[https://fr.wikipedia.org/wiki/%C3%89conomie\\_du\\_Br%C3%A9sil](https://fr.wikipedia.org/wiki/%C3%89conomie_du_Br%C3%A9sil)
- 16-Solenn De Royer Holland : ("**Doubler les échanges avec le Brésil**") in le Figaro, le vendredi 13 décembre 2013
- 17- Marcel Mauss, **Essai sur le don : Forme et raisons de l'échange dans les sociétés archaïques**, in sociologie et anthropologie, Paris, PUF, 1968
- 18- Mathew, "Reserve transfer of Technology: A perspective